العرب
الأحد 2021/10/03
السنة 44 العدد 12198

قبل أن تنعت الشعبوية بالأزمة.. هل تعرف ما هي الشعبوية؟

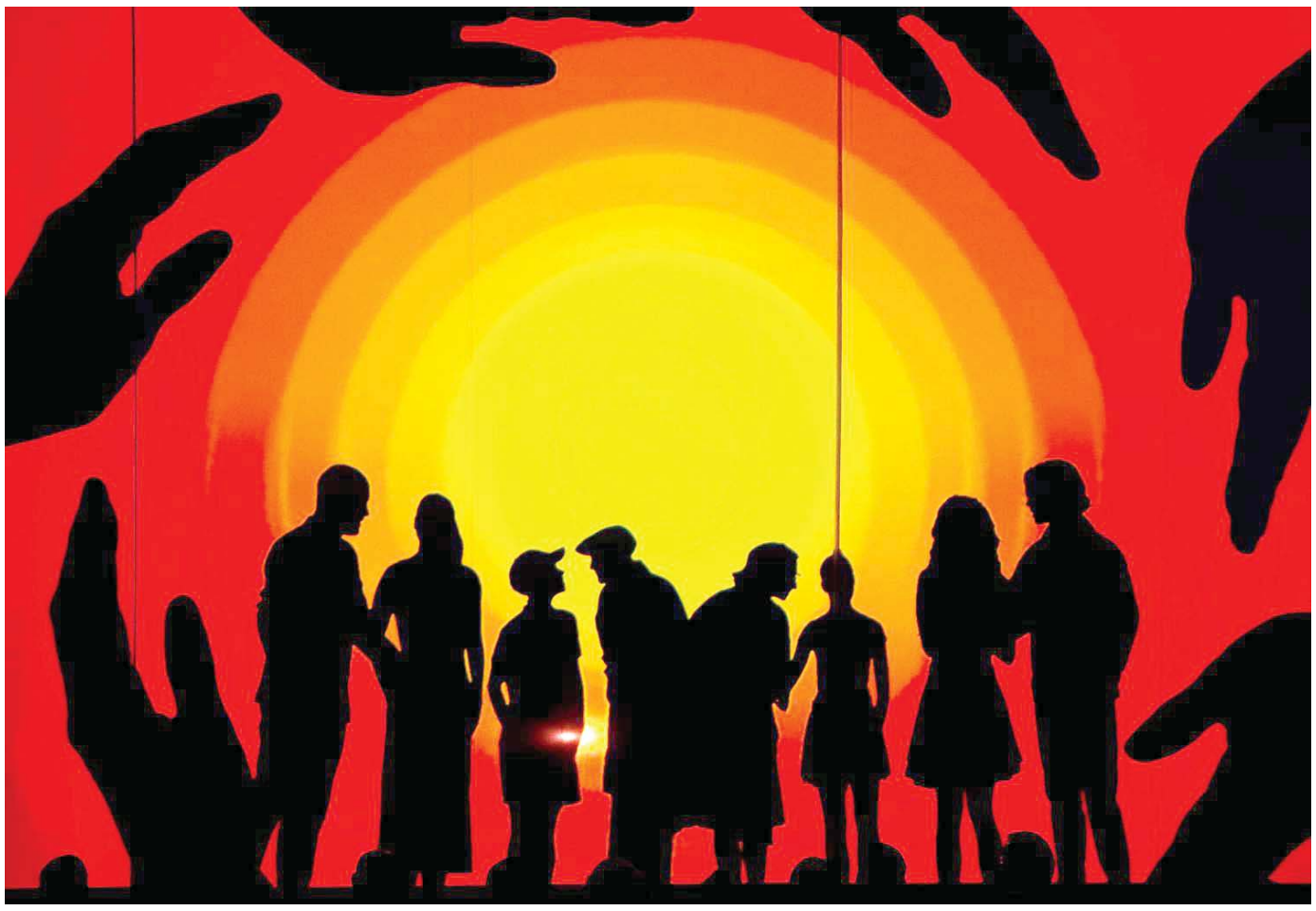

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

ظنّ الكثير من المفكرين والمؤرخين أن عصر الأيديولوجيات انتهى مع أفول القرن العشرين، ولكن العالم الذي يمور بالمتغيرات لا يزال يفرض واقعه ومعطياته، ويأبى ألا يحتضن هو أيضا أيديولوجيات جديدة، كالشعبوية مثلا، وإن كانت حتى اليوم ليست مصوغة نظريا من قبل فيلسوف أو مفكّر صياغة متكاملة تنبئ عن منطلقاتها وآفاقها وسبل تطبيقها على أرض الواقع.

فالشعبوية لا يزال يُنظر إليها بوصفها عرَضا من أعراض أزمة الحكم في الديمقراطيات الغربية المعاصرة، دون أن تكون حلًا مقنعا لتلك الأزمة. وقد ظل مفهومها مطّاطيا، لما يشوب استعماله من فوضى، دون أن يعني ذلك خلوّه من معان. والسبب أن المحللين والمفكرين لا يزالون يحصرونه في بعده الاحتجاجي، دون الأخذ بعين الاعتبار تاريخه وأسسه الثقافية، حتى يمكن إخضاعه للنقد، كسائر الأيديولوجيات.

الشعبوية، بخلاف الأيديولوجيات الكبرى للحداثة كالليبرالية والماركسية والاشتراكية والأناركية تفتقر إلى قامة فكرية بارزة، أو نظريات مؤسسة

لقد تركزت التحاليل التي رصدت ظهور الشعبوية واستشراءها على التصويت الشعبوي وأسبابه الاقتصادية والسوسيولوجية والثقافية، لتحصرها في بعدها الانتخابي، وحتى في مجرد أسلوب خطابي، وتمّ النظر إليها في الغالب كمسألة شاذة، لا كأيديولوجيا. والسبب أنّ الشعبوية، بخلاف الأيديولوجيات الكبرى للحداثة كالليبرالية والماركسية والاشتراكية والأناركية، تفتقر إلى قامة فكرية بارزة، أو عمل نظري مؤسس، باستثناء محاولة الفرنسية شنطال موف (في سبيل شعبوية يسار) والأرجنتيني إرنستو لاكلو (العقل الشعبوي) لتصور شعبوية اليسار.

ولئن قاربت الأشغال الراهنة الشعبوية سلبيا في الغالب، على غرار الهولندي كاس موده الذي يرى فيها مجرد خطاب، فلأنها تجاهلت أن الشعبوية هي من أعراض قلق ديمقراطي. ومن ثمّ وجب النظر بجدية إلى الأسئلة التي يطرحها الفاعلون الشعبويون لتطوير الديمقراطية، ولا يكون ذلك إلا بالاعتراف بموقفهم من التمثيل النيابي، وتنويع أنماطه وأشكاله التعبيرية، دون الاقتصار على الممارسة الانتخابية، كاللجوء إلى ديمقراطية تفاعلية، وتمثيلية سردية تشفع الديمقراطية التمثيلية الكلاسيكية.

في كتاب "عصر الشعبوية، التاريخ والنظرية والنقد" يواصل بيير روزانفالون، أستاذ التاريخ وعلم الاجتماع في الكولاج دو فرانس، الاشتغال الذي استهله في بداية الألفية على التحولات الديمقراطية المعاصرة، وواصله في كتاب "الحكومة الجيدة" الصادر عام 2015، وكان أكّد فيه أن "منظوماتنا تنعت بالديمقراطية لكونها معزّزة عن طريق صناديق الاقتراع... ولكننا لسنا محكومين ديمقراطيا".

وقد انطلق من هذه المعاينة لفهم الشعبوية، التي يرى أنها "أحدثت ثورة على الصعيد السياسي في القرن الحادي والعشرين"، فهو يرفض أن يرى في الشعبوية مجرد ردّ فعل "لليبرالي" (بمعنى مناهض لليبرالية) أولا لأن دعاة الشعبوية أنفسهم ينبذون بوضوح هذه الديمقراطية الليبرالية التي تستحوذ على الديمقراطية الحق؛ ثانيا لأنه ينبغي الإقرار بأن ثمة نظرية ديمقراطية تهيكل الأيديولوجيا الشعبوية. وقد أوضح المؤلف منذ المقدمة حدود الأدبيات الراهنة التي تحصر تحاليلها في ظروف قومية مخصوصة، والحال أن ثمة واقعا لا بدّ من تنظيره حسب قوله.

ساءل روزانفالون عن مفهوم الشعبوية، هل هي ظاهرة انتخابية أم حركة مجتمعية أم تيار سياسي أم هي أيديولوجيا لها تاريخها وفلسفتها ومنظّروها؟ ويحاول أن يفهم جوهر الشعبويات، ما يوحّد بينها، وما يفرّقها بالرجوع إلى الواقع التاريخي، من القرن التاسع عشر إلى الآن، وينتهي إلى استخلاص الخصائص الأساسية للشعبوية، والعمل على اقتراح تصوّر مفهومي، حيث جعل غاية دراسته ضرورة تحديد الشعبوية، يمينية كانت أم يسارية، كـ"ثقافة سياسية" يتآلف مَثلُها النموذجي في عناصر أربعة:

أولها أن الحركات الشعبوية تتميّز بمفهوم قوامه "الشعبُ واحد" وهو مفهوم يتجاوز التعارض الكلاسيكي بين "هم" أي النخبة الأوليغاركية و"نحن" أي عامّة الشعب، لكونه يميز بين الشعب جسدا مدنيًا، وهي صورة التعميم السياسي، وبين الشعب جسدا اجتماعيًا، وهو كيان حقيقي مَسود يمكن أن يأخذ شكل بروليتاريا، من الطبقة العمالية أو الطبقات الشعبية.

وثانيها أن "المثل النموذجي" يتمثل في نظريةٍ ديمقراطية مخصوصة تريد أن تكون مباشرة (تقديس الاستفتاء) واستقطابية (نبذ الهيئات الوسيطة) وفورية (عفوية شعبية)، أي أنها نقيض عمل الديمقراطيات الليبرالية التمثيلية المعاصرة.

وثالثها طريقة التمثيل حيث تؤدي الحركات، أكثر من الأحزاب، دورا حاسما، مع اعتمادها دائما على "رجل شعب". وتتميز تلك الحركات بتفضيلها القومية الحمائية كسياسة وفلسفة في المجال الاقتصادي.

ورابع تلك العناصر استناد الثقافة السياسية للشعبوية إلى منظومة عاطفية تقوم على الانفعالات الحماسية أكثر مما هي عقلانية.

من خلال تلك الملامح يشرّح روزانفالون تلك الثقافة السياسية التي تتبدى، بصرف النظر عن بعض قادتها، عبر ظواهر مختلفة، كما هي الحال مع "النجوم الخمس" في إيطاليا، و"السترات الصفراء" في فرنسا، و"احتلوا وول ستريت" في الولايات المتحدة. وقد سعى المؤلف إلى تقديم إجابة واضحة عن النقد الشعبوي للديمقراطية المعاصرة، الذي يقترح بدائل تلغي ما يسميه دعاتها بـ"حكم القضاة"؛ أو الدعوة إلى الاستفتاء كطريقة عادلة لاختيار قادة البلاد ورسم سياستها، ففي رأيه أن الاستفتاء يذيب مفهوم الجسد السياسي، ويتناقض مع مبدأ التشاور، ويقود أحيانا إلى أوضاع لا يمكن التراجع عنها برغم بروز آثارها المدمرة، على غرار استفتاء البريكست؛ أو يؤدي إلى ما أسماه "الديمقراطوريا" أي النظام الذي يؤدي بالديمقراطية إلى حكم سلطوي استبدادي، حيث يسعى الحاكم الذي وصل إلى سدّة الحكم بطريقة ديمقراطية إلى التشبث بمنصبه وتحوير الدستور على مقاسه ليجدد لنفسه أكثر من عهدة.

مثلما حلل العلاقة بين المشاعر والسياسة، بين الاندفاع الانفعالي الذي يتوخاه قائد ذو كاريزما يوهم بأنه ينطق باسم الشعب، وممارسة السياسة، مبيّنا أن من وصلوا إلى السلطة بهذه الطريقة، على غرار أوربان في المجر، تنكروا لوعودهم، وحوّلوا الديمقراطية التي اعتلوا بفضلها كرسي السلطة إلى منظومة حكم فردي.

ولا يكتفي الكاتب بالأمثلة المعاصرة عن تبعات السياسة التي تقوم على الاستفتاء في شرق أوروبا وأميركا اللاتينية، بل يعود إلى القرن التاسع عشر، مع نابليون الثالث تحديدا الذي نصّب نفسه إمبراطورا، ويسترجع ما عانته فرنسا في عهده الاستبدادي، وما آلت إليه من هزيمة نكراء أمام القوات البروسية عام 1870، قبل أن يُطاح به هو نفسه.

الجديد الذي جاء به روزانفالون هو دعوته إلى مقاربة الشعبوية بوصفها ثقافة سياسية، ما يسمح بدراسة الظاهرة خارج الحقل المختص في سوسيولوجيا الاقتراع والعلوم السياسية، وبما أنها مبثوثة بأشكال مختلفة، فبالإمكان حسب رأيه تصور مقاربة أنثروبولوجية لملاحظة تمظهراتها في الحياة اليومية للأفراد والجماعات.

الشعبوية ثقافة سياسية

ولكن إذا اعتبرنا أن الشعبوية يمكن أن تكون من اليمين ومن اليسار على حدّ سواء، فإننا في الواقع نخلط بين ظاهرتين من طبيعة مختلفة، ذلك أن أغلب الحركات الشعبوية في أوروبا خلال هذا القرن قامت في الأصل على انحراف حركات يمينية متطرفة، في حين أن شعبوية اليسار لها مرجعية ماركسية، فقد يتفق الطرفان حول قضايا المهاجرين واللاجئين، ولكن الاختلاف بينهما في ما يخص العنصرية ومعاداة الأجانب والمسائل ذات الطبيعة الجندرية واضح لا غبار عليه.

ولكن لا مناص من الإقرار بأن روزانفالون، في كتابه هذا، اجتهد لتقديم نظرية سياسية عن الشعبوية، حيث تناولها بوصفها فعلا وليست ردة فعل، وفكرا وليست جملة مشاعر حماسية تندفع خلفها الجموع. غير أن دعوته إلى ضرورة تنظير الشعبوية لا تخلو من نقد، فهو إذ يدافع عن اعتبارها أيديولوجيا قائمة الذات يمكن اقتراحها بديل حكم، يؤكد على ضرورة اندماجها في النسيج السياسي لتعزيز الديمقراطية.

لا مجد لمن قال «لا» ولا عار في قول «نعم»

محمد ناصر المولهي
كاتب تونسي

"المجد للشيطان معبود الرياح/
مَن قال "لا" في وَجْه مَن قال "نعمْ"/ مَن علّم الإنسانَ تمزيقَ العدمْ/
وقال "لا" فلم يمتْ وظلّ روحًا أبديةَ الألمْ". هكذا استهل الشاعر المصري الراحل أمل دنقل قصيدته كلمات سبارتاكوس الأخيرة، مستحضرا شخصية قائد أولى ثورات العبيد في التاريخ وأكثرها شهرة، الذي تجرأ على روما وقاد ثورة كادت تفتك بها. حرك دنقل قصيدته بحرف النفي "لا" حتى صارت، بعيدا عن أهميتها الفنية من عدمه، شعارا يمجد الـ"لا" في وجه الخانعين والمطأطئين بـ"نعم".

"لا" كانت وما زالت شعارا سياسيا وحتى اجتماعيا وثقافيا أيضا، إنها شعار يقحمه حامله في كل قضيّة ليعلن رفضه، تمرده، انشقاقه، صورته الخاص. "لا" مثل العصا التي تقود من أعماهم القهر والظلم والتهميش إلى نور ما، حقيقة ما خاصة. لكن هل فعلا هذه الـ"لا" كانت كذلك؟ وهل فعلا كانت الـ"نعم" دلالة استكانة؟

لنتفق بداية أن هذه الـ"لا" التي مجدها وما زال يمجدها الشعراء والفنانون والسينما والمسرح وحتى المظاهرات، ليست واحدة، إنها لا نهائية تقريبا، هناك لا تنطلق من الخوف والانطواء، وأخرى تتشكل من الشك والارتباك، هناك لا تخرج من الألم وأخرى من العناد أو الدوغمائية، هناك لا تعني الضعف والارتياب وأخرى تعني الجهل والمكابرة وأخرى تؤكد الأنانية والإفراط في حب الذات على حساب الآخرين، هناك حتى لا تعني نعم.

"اللاءات" التي انطلقت كأصوات متمردة، لم تعد كذلك فقط، بل توسعت مع تعقد حياة الذاوت في واقع لا يتوقف عن السيلان.

بعض من النخب العربية اشتهرت بإشهار "لائها" في وجوه الاستعمار والأنظمة الدكتاتورية، ونالها ما نالها من تنكيل وملاحقة، لكن من الخطأ أن نضع كل هذه النخبة في سلة الـ"لا" المتمردة الرافضة والمقاومة والداعية إلى واقع أفضل لشعوبها.

هناك من النخب أسماء ساهمت في صناعتها الـ"لا" على حساب منجزها في الواقع ثقافيا أو إبداعيا أو علميا أو حتى اجتماعيا وغيره. بعضهم إذا جردته من الـ"لا" لن تجد شيئا.

إن علاقة أكثرهم بـ"لا" مثل علاقة أغلبه بكتابة الشعر، قليلون يكتبونه لذاته أو لذواتهم في رؤية جمالية أو فنية خاصة، كثيرون يكتبونه مرددين طمعا في مكانة ما في علاقة حب أو صوت خاص أو مركز ما وسط الناس، الأسباب كثيرة ومضحكة أحيانا، رغم ما في الشعر من وقار إنساني حملته أصوات المعذبين والهوامش والمنسيين عبر القرون.

الـ"لا" التي قادت سبارتاكوس كانت نبيلة صرخة مدوية عابرة للتاريخ، خلدته قائدا شجاعا إلى الأبد، لكن هل حسنت أوضاع العبيد، الذين نكل بهم بعد الهزيمة؟ التاريخ يجيبنا بأنها لم تفعل. بعيدا عن التقييم الأخلاقي والجمالي والشعري، الشعوب تحتاج ما بعد الـ"لا" دائما.

الـ"لا" ترفع حين بضيق الصدور بالترقيع، إنها للهدم، ومن ثم لابد من بناء ما هدم. إذا لم يعقب الهدم بناء سنجد أنفسنا على خراب لا معمر له إلا الخواء.

سأستشهد بالمشهد التونسي في السنوات القليلة الأخيرة إلى غاية اليوم. هناك أصحاب لاءات كثيرون من زمن الدكتاتورية البوليسية، مرورا بالمسار الثوري الذي شهدته تونس من 17 ديسمبر 2010 إلى 14 يناير 2011. كان للاءات دور كبير في تجييش الشارع الرافض والمثقل بالقهر والتهميش والظلم الاجتماعي والتضييق والكبت السياسي وانعدام الحرية.. كانت الـ"لا" حاسمة في شعار "خبز وماء وبن علي لا". إنها الـ"لا" التي جمّعت التونسيين حولها، حتى استنشقوا لأول مرة هواء وطن حر. لكن ماذا حدث من بعد؟

هناك من النخب أسماء ساهمت في صناعتها «لا» على حساب منجزها في الواقع إبداعيا أو علميا أو حتى اجتماعيا

النخب التي شجعت "لا" الشعب، وكان لها لاءاتها، كانت تشبه الشعب في أنها لا تعرف ماذا بعد الـ"لا"، من العادي ألا نعرف، يمكن أن نفكر في مسار ما. أن نبني ما بعد الرفض والتمرد. لكن الاختلاف بين النخب والشعب كان واسعا، نخب منها حمل "لاءه" وتدبر لنفسه بها مكانة ما وظيفة أو عملا سياسيا أو مدنيا ومردودا ماديا ما، أما الشعب فظلت لاؤه تذوي وحيدة لا تعرف ماذا بعدها، فيما الثقل يكبر حتى تراجعت "لا" كل واحد إلى حلقه في وقفة تأمل.

اشتهر أحد نخب اليسار التونسي الجاثم على حزبه قائدا منذ ثلاثين عاما بقوله "لا" لأي شيء وأي قضية، حتى صار محل تندّر وصارت معه الـ"لا" التي قادت شعوبا إلى حريتها ومستقبلها، مجرد أداة عمل سهلة.

بالعودة إلى السؤال الأول حول "نعم" إن كانت دلالة استكانة، فقد أدى تمجيد الـ"لا" المفرط إلى تبخيس الـ"نعم" وكأنها لا تعني إلا الخنوع، بينما هي في أحد وجوهها ما يؤسس للتوافقية، ولا يمكن أن تقوم دولة ما أو جماعة أو غيره من دون توافق، أي نعم التوافقية المفرطة نوع من المرض النفسي يمثل شخصيات منقادة وبلا شخصية ويمكن علاجه. لكن التوافقية ضرورة.

تونس كحال الوطن العربي ككل، نحتاج اليوم إلى كشف اللاءات المزيفة والهدّامة، نحتاج إلى ما "لا" مثل تلك التي أرستها الحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي والتي أسست لدولة ما بعد الاستقلال، تونس الحديثة. نحتاج إلى إرساء توازن بين الـ"لا" والـ"نعم"، فليس كل رفض فضيلة ولا كل موافقة استلابا، التوازن هو ما يؤسس لشعب مختلف الأفكار والتصورات والرؤى ولكنه متوافق حول الوطن وقيم حقوق الإنسان وعلوية الثقافة والقانون والمواطنة وضرورة الديمقراطية وأهمية التجديد والتفكير الدائم في المستقبل والأجيال السابقة والقادمة.

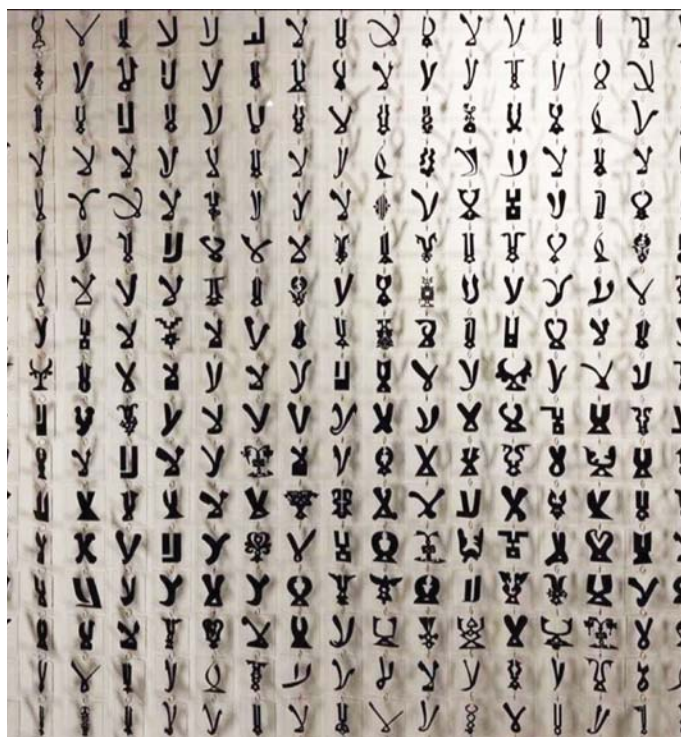

«لا» ليست واحدة لكل منها غايتها (لوحة للفنانة بهية شهاب)

مقال أبوبكر العيادي في ص10 ومقال نهلة راحيل في ص 12 ينشران كاملين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية